رواية

الأرملة تكتب الخطابات سرًا

طارق إمام

دار العين للنشر

الأرملة تكتب الخطابات سرًا

طارق إمام

الطبعة الأولى - ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥
WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار:
أ.د. أحمد شوقي
أ.د. جلال أمين
شوقي جلال
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام:
د. فاطمة البودي

الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٨/٢٤٦٧٠
I.S.B.N : 978 - 977 - 6231 - 84 -9

إلى مروة عبد الله

وكان في المنزلين موضعٌ مُطَّلِعٌ من أحدهما على الآخر، فكانت تقف له في ذلك الموضع، فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها؛ فخاطبها مستخبرًا عن ذلك، فأجابته: هذه علامة بيني وبينك، فإذا رأيت يدًا مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدي.. فلا تجاوب.

ابن حزم الأندلسي
" طوق الحمامة "

زمن الحب ليس كبيرًا ولا صغيرًا.. هو الإدراك الفوري لكل الأزمنة في زمن واحد، بكل الحيوات في هنيهة واحدة.. لا ينقذنا من الموت بل يجعلنا نراه وجهًا لوجه.

أوكتافيو باث

(1)

استطاع الخطاب الغرامي أن يهشم زجاج نافذة غرفة النوم السميك، وأن يستلقي بالداخل، بالقرب من الجسد النائم للأرملة التي تحلم.

تمدد بكامل تجاعيده، وبسطوره القليلة المحكمة المكتوبة بحبر أزرق، والتي ذابت مع الأمطار القوية بالخارج. كان يومًا عاصفًا، بدت معه المدينة الصغيرة الغارقة مثل بئر تعكس وجوه ملايين الأشباح التي عبرتها ذات يوم.. وكانت الرياح من القوة حتى أنها نزعت عن الناس ملابسهم، غير أن كل ذلك لم يكن يساوي شيئًا أمام حلم آخر هاجم الأرملة منذ ثلاث ليال واستبقاها نائمة إلى الآن.

عندما شاركتها القصاصة المجهولة سريرها والتصقت بلحمها العاري حاملة أنفاس رجل، كانت مَلَك تشاهد حلمًا ممتدًا.. لذا لامست الخطاب الذي انسل ليزاحم جسدها تحت الغطاء غير عابئة..

بل إنها لم تشعر بالبرد المفاجئ بعد أن بدأت الريح تدوِّم داخل غرفتها عبر الزجاج المهشم.

كانت المدينة غارقة في جلبتها التي حركت زمنًا راكدًا، والقليلون الذين شاهدوا رحلة الخطاب المرفرف بعد أن غادر اليد التي أطلقته وحتى عبوره الصاخب للنافذة لم يندهشوا. اعتبروها معجزة أخرى قابلة للتحقق في سماء بلا تاريخ.

كان خطابًا ملتهبًا، كتبته يدٌ شابة، ووجهته بالنوايا الحسنة فقط لغرفة امرأة شاخت، مقررةً أنه لابد أن يصل.

لن تصحو المرأةُ في هذه الأثناء، ستنام طويلاً حتى إنها عندما تستيقظ ستكون على يقين من أنها بُعثت.. أسنانها ترتجف ولجسدها ملمسُ فستان من العظام، وستستعيد كلَّ الأحلام التي رأتها من قبل، بتفاصيلها الدقيقة، دون مشهد واحد جديد. فقدت الأحلام دهشتها في تلك الليلة.. وكان على المرأة أن تستعيد دون رغبةٍ منها تاريخَ أحلامها الذي لم تفكر يومًا في تدوينه.

الخطابُ سيظل يهزها، وسيوخزها بأطرافه الحادة المدببة، ولكنها لن تطالعه قبل أن تنتهي أحلامُ عمرها المديد التي هاجمتها فجأة. ستتكاثر تجاعيده بمرور الأيام، حتى إنها عندما تستيقظ ستفض تجاعيد صفحته العجوز بصعوبة وهي تهمس مرتعبة: أي ميت أنت؟.

(2)

عندما استيقظت ووجدته ملتصقًا ببطنها ارتعبت. لمت ملابسها بسرعة. ورغم أنها تحسسته مرارًا في منامها الطويل إلا أنها ظنته حينها جزءًا من رؤياها. نهضت من على سريرها بشعور غامر بالذنب حين اكتشفت أنه شاركها سريرها كل هذا الوقت، كأنه رجل أكيد.

عبرت النافذة المستطيلة ذات الضلفتين إلى البلكونة، وشعرت بأنها مكتملة حتى أنها مهيأة للموت. كانت سارحةً، تتطلع للبيوت المظلمة، وتفكر أن يدًا امتدت من إحدى هذه النوافذ بورقة تكفلت الريح بإيصالها. بدأت تراقب الظلمة،غارقةً في أحلام يقظة تخص زمنًا لم تعد تملكه، وهي تفكر في السنوات الثلاثة التي قضتهاَ تحتً هذا السقف، لا تفكر في شيء سوى الموت.

كانت تمطر بالخارج، وراحت زخات المطر المائلة تجد لنفسها مكانًا داخل غرفة نومها. وقبل أن تتحرك باتجاه النوافذ لتغلقها تذكرت أنها

رأت في منامها شبحَ رجل يتجول في الشقة ويتحرك في غرفتها. في هذه اللحظة فقط شكت أن يكون ما رأته في حلمها شيئًا واقعيًا، وأن لصًا قد يكون تسلل للشقة في عتمة المساء الشتوي. بسرعة بدأت تفتش عما يمكن أن يسرق منها.. ولكنها وجدت الذهب في مكانه والملابس كما هي.

بدأت الطرقات على الباب.

دخلت التلميذات مستغربات، كأنهن في مكان آخر غير الذي يأتين له كل يوم. كانت رائحة الشقة عطنة. شعرت ملك أنها رائحة أنفاسها الخائفة. "رجاء" أيضًا ليست موجودة. يوم جديد شعرت المرأة أنه ثقيل. تذكرت الحلم، كان يخص هؤلاء الفتيات ويشير لحياتها، كأنه علامة غامضة. جلست على المنضدة الدائرية وجلسن حولها، صامتات على غير عادتهن، ينظرن لها باستغراب.. كأنها امرأة أخرى.

.. في الحلم رأت نفسها أيضًا جالسة على نفس المنضدة التي تتوسط صالة بيتها، تكتب خطابات حب لفتيات يجلسن حولها، ومع كل فتاة تأخذ خطابها وتغادر الشقة، كانت ملك تلتهم واحدًا من خطاباتها القديمة، حتى إذا انتهت من آخر فتاة، التهمت آخر خطاب يخصها. في هذه اللحظة فقط تجد خطابًا يخبرها بأن عليها الآن أن تموت، خطابًا يرفرف و تمد يديها نحوه وهو يحلق في سماء الصالة، لكنها كلما تهم بالقبض عليه يراوغها. تظل تلاحقه وهو يبتعد حتى يغادر البلكونة. تقفز

خنفه، تمسك به و هي في الهواء، تقرأه بسرعة في رحلة سقوطها نحو الأرض.. ثم تلتهمه قبل لحظة واحدة من اصطدامها بأحجار الشارع الترابي. ربما بسبب ذلك تخيلت للحظات أن الخطاب الذي تسلل لحياتها و هي نائمة لم يكن سوى جزء من الحلم، و لكنها حين استيقظت اكتشفت أنه خطاب واقعي، من حبر وورق. ربما لذلك فكرت أن لذلك الخطاب علاقة ما بموتها في المنام.

الحلم لا يختلف كثيرًا عما تفعله الأرملةُ المسنة.. فقبل ثلاث سنوات اتخذت مهنتها المعلنة كمدرسة للغة العربية شكلاً آخر.. منح حياتها رعشة كانت بحاجة إليها، كما منح يدها الفرصة لتعبِّر عن بلاغتها القديمة التي لم تسنح لها الفرصة من قبل للتعبير عنها.

في وقت متأخر جدًا من حياتها، اكتشفت ما يتعين عليها فعله حقيقةً في هذه الدنيا: أن تكتب خطابات غرامية ملتهبة لمُراهقات المدينة.. ليرسلنها إلى المُحبين، مشفوعةً بأمنياتها الصادقة بحسن الطالع.

" بعد أن أستمع إلى حكاية كل واحدة، وأحدد - بدقة - ما الذي عليها أن تكتبه.. و الأسلوب الملائم لشخصيتها و للشخص الذي تحبه.. سأشرع في كتابة الخطابات أولاً بخطي المنمق الجميل، ثم أعطيها للفتيات ليُعِدن كتابتها بخطهن ".

هذا ما قالته الأرملة لنفسها. فكرت أن هذه المهنة تشبه

- إلى حد بعيد - مهنتها كمدرسة، مع فارق واحد يجعلها أمتع..أنها هذه المرة في الخفاء.

بطريقة تفكير عملية بدأت تحصي الأشياء القليلة التي كانت لا تزال تربطها بالحياة: أنفاسها، وصَفَّيْ أسنان مكتملين ناصعي البياض، ويدًا لا تزال تعمل.

كانت في نظر الجيران مجرد امرأة تنتظر الموت، ترتدي على الدوام فساتين حداد سوداء، لا تخلو من زهور لم تكن مرئية - رغم أنها مطرزةٌ بعناية ودقة - ذلك أن الزهور كانت سوداء أيضًا. لم يكن يخطر على بال أحد أن مثل هذه المرأة لا تزال تحتفظ بقلب مراهقة تتهيأ للحب.. ولم يلحظ أحد أنها على الرغم من جسدها الشائخ، فإن شفتيها كانتا لا تزالان مشدودتين.

كانت تعمل في رتابة، مع مجموعات البنات غير المنتهية والتي أثارت حسد الجيران، وفي المساء تفتح الكراريس لتتسلى بتقييم تلميذاتها الصغيرات. ذات ليلة، وجدت خطابًا نائمًا في كراسة فتاة. قرأته مندهشة، ورغم ذلك أزعجتها ركاكته وعباراته غير المعبرة. كانت ملك امرأة لا تتهاون أبدًا مع جمال الأسلوب ورصانته. لكي تتسلى، بدأت تكتبه بالطريقة التي وجدتها مثالية، محافظةً على المعاني الماثلة فيه. استغرق

ذلك وقتًا ليس بالقليل.. ولكنها شعرت بمتعة سوداء، ونامت لأول مرة دون أن تنهي تصحيح الكراسات.

في الصباح التالي استيقظت ممتلئةً بما حدث. خرجت إلى البلكونة، كان الصباح مظلمًا كأنه الليل. رأت أسراب فتيات في ملابس كحلية وبيضاء، يتضاحكن، وعلى شعورهن أحجبة مرتجلة. تحسست شعرها المطلق بقدر من الخجل.

قالت: بعضهن يحملن تلك التليفونات الصغيرة، يتحدثن في أي وقت، ويكتبن الرسائل أيضًا. أصابها حديثها ذاك لنفسها بشيء من الإحباط، ولكنها عادت: ليس هناك ما يعوض خطاباً كتبته يدك تلك. وفردت كف يدها اليمنى أمامها في الشبورة الصباحية، فلم تر سوى بريق الخاتم الذهبي الغليظ. قربتها قليلاً، ورأتها مزرقة وشاحبة كأنها سبقت جسدها إلى الموت. غالبت الحسرة قائلة: هل تستطيع واحدة من هؤلاء أن تكتب ثلاث أو أربع ورقات على هذه الشاشة البخيلة ؟ إنها تصلح فقط للاتفاق على موعد أو لتوضيح موقف عابر. هؤلاء الفتيات بحاجة لمساعدة.. ولعلهن يفعلن ذلك بالفعل. داخل هذه الحقائب تنام أشواقهن.

قالت لنفسها: لقد كنت أرى أشياء مثل تلك في شبابي.. في فصول البنات، عندما ألمح خطابات غرامية في الكراريس، وفي طيات الحقائب المدرسية.. غير أنني كنت قاسية للغاية. كنت أعاقبهن أو على أفضل تقدير

أطالبهن بالإقلاع عن ذلك. رغم أنني كنت أتبادل خطابات لا تقل سذاجة مع شاب !. لقد أحبطت آمال كثيرات بتمزيق أوراقهن وباستدعاء الآباء، ولو فعلت ذلك الآن، فسيكون تكفيرًا غريبًا مع حفيدات هؤلاء الطالبات بالذات !.

غابت في وجل غامض، و امتلأت عيناها الواسعتان بالدموع: كثيرات منهن عشن مع رجال لم يكن يحببهن.. و رغم أن القدر هو من يتسبب في ذلك.. إلا أنني ساعدته بكل الطرق !.

في هذه اللحظة فقط تجرأت، وقررت أن تفض الحقيبة الصغيرة التي لم تفتحها منذ سنوات طويلة، منذ تزوجت.

استبقت الفتاة بعد أن أنهت الحصة التالية، ووبختها، ولكنها كافأتها سرًا.. فقد كان خطابها النموذجي نائمًا في كراستها. أدركت الفتاة ذلك الجميل الأمومي، واستمرت في فعلتها مانحة الأرملة الفرصة التي كانت تموت من أجلها. و لم ينقض وقت طويل حتى كانت العدوى السرية تنتقل لكراسات أخرى، والتواطؤ الخفي يتخذ ـ يومًا بعد آخر ـ شكل اتفاق معلن.

(3)

ظهرت الشمس في اليوم التالي، وجف الخطاب.

عندما اقتربت منه تأكدت أنه تحول إلى حطام.. ولكنها بمجرد أن أمسكت به وقربته من عينيها ارتعدت وكادت تقع.

ما الذي حدث؟ لقد ظنت ملك أن ما تفعله منذ سنوات سيكون سرها الأخير الذي يجب أن تحافظ عليه إلى أن تغادر العالم. الآن هناك هذا الخطاب الذي باغتها هذا الصباح، فقط ليوقظ الذكرى.

من أرسله؟ ولماذا فعل ذلك؟. كانت الأسئلة تقتل ملك. وكان سؤال آخر يسيطر عليها منذ عادت للمدينة: أين هذا الحبيب؟. فتشت عنه في كل ركن، وسألت كل من يمكن أن تسأله، ولكن أحدًا لم يجبها.. كأنه تبخر.

جاء الخطاب ليكمل ماضيها فجأة، وليجعلها تتأمل من جديد خطاباتها القديمة بعين أخرى. كانت مدينة لمهنتها الجديدة بإخراج هذه الخطابات من حقيبة اليد المهملة، والتي ظلت دائمًا نائمة في عتمة دولاب زواجها.

عندما بدأت عملها، ولكي لا تقع في أخطائها القديمة، أخرجت كل خطابات غرامها المفقود وأعادت قراءتها. كاد الحنين أن يهزمها، بينما تستنشق رائحة الخسارات التي غادرت الحقيبة المهترئة لتغمر غرفة نومها..و لكنها قاومته بالنظرة الصارمة لامرأة ستحدد مصير أخريات.

بعد دقائق كانت الخطابات تفترش الملاءة، بكل تراب السنوات التي علقت بتجاعيد الوريقات المسطرة. هالها ما وجدته في الخطابات من سذاجة وقلة حيلة وافتقاد لأبسط مباديء الحكمة وحسن التصرف.. وحمدت الله أن حبيبها الأول ـ والوحيد في الحقيقة ـ أعادها لها عند الفراق كنوع من الشرف.. كما حمدت الله أنها لم تحرقها انتقامًا من قلبها، واحتفظت بها دائمًا كعبء حقيقي كان هو المسئولية الوحيدة التي نجحت في تحملها بامتداد عمر عامر بالإخفاقات.اكتفت دائمًا بقراءتها كطقسٍ سري أثناء زواجها من رجل لم تحبه أبدًا ـ و لم تكرهه أيضًا ـ وهو، من وجهة نظرها، الأسوأ.. لذا، قررت أن تكون أول نصيحة تهديها لفتاة هي: " إذا فشلتِ في الزواج من رجل تحبيه.. تزوجي من رجل

تكرهيه.. لكن إياك و الزواج من رجل لا تحملين له مشاعر خاصة.. لأن يومًا سيأتي عليك لتكتشفي أنك لاتملكين في حياتك ما يصلح للتذكر ".

(4)

بدأت تستعيد قدرًا واهيًا من تماسكها، غير مصدقة أنها ستعبر نهاية العام هذه المرة وهي لا تزال تتنفس. أخذت تتحرك في الشقة، وشعرت أنها تشيخ مع كل خطوة. المكان غارق في فوضى أكيدة، كأن أشخاصًا ظلوا هنا طيلة الأيام الفائتة. هل الأشياء على هذا النحو في أماكنها التي تركتها عليها، أم أن شيئًا تغير؟. تبدو الشقة مكانًا آخر لا يحتفظ من ماضيه القريب إلا بحفنة الحوائط. على مقربة من عقب الباب وجدت جسدًا صغيرًا هشًا، ومتكومًا على نفسه: قصاصة أخرى ترقد على البلاط.

انحنت والتقطتها مرتجفة، ولكن رعشة الخوف ما لبثت أن تحولت إلى شعور خفيف بالانقباض بعد أن قرأت القصاصة المتسخة بأصابع ذائبة. خفير المقابر يخبرها بخط ركيك أنه عثر لها على مقبرة، وأنه يطرق بابها منذ ثلاثة أيام.

"كدت أنسى!".

ارتدت ملابسها بسرعة، وفكرت أن الوقت قد حان لتتعرف من جديد على المدينة التي لم تتمشى فيها منذ عادت.

بدأت تقطع الشوارع الترابية بلا هدى، وهي تتأمل لأول مرة المدينة التي عادت لتدفن في مقابرها. لم تتغير كثيرًا، كأن الزمن لم يغير فيها سوى قامات البيوت التي صارت أعلى.. وواجهاتها المطلية بألوان حديثة متنافرة.

أغلب الشبابيك مواربة، وقطع الملابس تطوق البلكونات، تنز منها المياه. هناك أنفاس خلف كل تلك الشبابيك، مواربة أيضًا وخافتة. كانت تنظر لأعلى غير عابئة بالنظرات المتلصصة لسيدات يثرثرن على كل العتبات. الشوارع مغمورة بماء ممتزج بصابون بدأ التراب يتشربه ولكنه ترك رائحة واحدة في كل الشوارع. تخيلت آلاف الخطابات تغادر الأيدي في نفس الوقت، وتعبر سماء المدينة الضيقة في قطعان لتستقر في غرفها. ورأت طائرات ورقية بعيدة، كأنها رسائل أخرى غامضة. شعرت بالرعب، مأخوذة بحلم يقظتها الذي بدا أشد وطأة من أي حقيقة. تذكرت أن اليوم جمعة، لأن الظهيرة كانت أشد من أن تُحتَمَل رغم أن الوقت شتاء.

كانت الشوارع تمتلئ بأسراب رجال بجلاليب بيضاء فضفاضة، عوراتهم تكاد تكون مكشوفة. الحُصْرُ الخضراء تفترش الشوارع على عجل.. وما هي إلا لحظات حتى انطلقت مكبرات الصوت في كل مكان. عبارات مكررة يتردد صداها، وتتلاحق بلا نهاية.. والرجال يهرولون في كل الاتجاهات.. كأن كلاً منهم يبحث عن صوته الخاص. اختفت النساء الجالسات على العتبات فجأة. أُغْلقت الأبواب أولاً ثم الشبابيك.. باصطكاكات متوالية كقطع الدومينو. وفي لحظة صارت ملك وحيدةً في المدينة.

قررت أخيرًا أن تتوجه نحو المقابر.

قبل أن تسأل عن الطريق الذي لم تعبره على قدميها من قبل، شاهدت نعشًا نحيلاً يمشي خلفه الرجال. تبعته، محتفظة بمسافة آمنة بينها وبين الموت.

كلما اقتربت من المقابر كانت ترى أعدادًا أكبر من الأطفال. يلعبون الكرة، ويتقاذفون بالحصى و الحجارة، و يُطَيِّرون الطائرات. أيضًا صارت الشمس أشد قوة في الخلاء الذي لا يحوي سوى حفنة بيوت متناثرة.

بين الشواهد بدأ التراب يهب فجأة. وجدت نفسها في قلب الحياة التي لم تعثر عليها في الشوارع التي ودعتها للتو. سيدات في ملابس سوداء

يجلسن وحولهن أطفالهن، وروائح أطعمة متداخلة تغمر هواء الوداعات الثقيل.

"الناس هنا في يوم الجمعة يرتدون لونين فقط.. جلاليب بيضاء للرجال والأطفال وعباءات سوداء للنساء والفتيات". ربما لهذا السبب بدت ألوان البنايات ولافتات المحال صارخة. عالم ملون يعيش فيه ناس قادمون من زمن أقدم. أشعرها ذلك بالألفة مع ملابسها السوداء.. وفي المقابر فقط، كفت الأعين الفضولية عن التحديق فيها.

شاهدت المقبرة التي فُتحت ليسكنوا جسدًا جديدًا تحت التراب. زاد انقباضها وهي تودع الرجل الذي ظلت تمشي خلفه، وأرشدها جسده للمكان، حتى عقدت معه صداقة ما.. كأنه مات في هذه اللحظة فقط.

كان الخفير نائمًا. عندما هزته، انتفض كأن روحًا شريرة هي التي أيقظته. نظر لها كأنه يستعيد وجهها، ونطق الشهادتين قبل أن يرحب بها، لخصت ما تريد في كلمة واحدة: فين ؟

لص صغير. يقتسم الرشاوى مع موظفي المجلس المحلي. يشبه قاطع طريق متقاعد.

قادها دون أن يتحدث إلى صف مقابر رخامية. من أين برزت؟. أخفت الأرملة دهشتها وهي تتأمل العالم الجديد الذي لم تره.

– لسه ما حدش اتدفن هنا.. لكن ناس كتير حجزت.

شعرت فجأة أنها في مكان آخر. نظرت للخفير من جديد، وجدته ينظر في عينيها مباشرة، وشعرت به يلتهمها بعينيهأ فأدارت وجهها بسرعة. يدير وجهه في كل النساء، ولكنه يظل باردًا كأنه يتأمل عريهن النهائي في لحظة الموت.

هناك ندبة مفتوحة في خده الأيسر، مثل مجرى صغير داكن في وجهه، لم يُرتَّق. حولها ما يشبه الدم المتجلط بلون بني داكن. رغم ذلك كانت بنيته القوية وملامحه الحادة تبدو لملك كافية لتمرير هذا الجرح المخيف.

– وعمى فكرة في أي لحظة ممكن ينقلو الترب اللي هناك.. كذا محافظ كان هيعمل كده.. بس دي ماحدش هيقدر ييجي ناحيتها.

سألته ملك باهتمام:

– ليه ؟

ضغط بإبهامه على الوسطى و أخذ يمرره بنعومة، ففهمت أنه يقصد المال.

فجأة، أخرج من جيب البالطو الطويل زجاجة صغيرة خالية، وانحنى

ببطء و برود، و رأت ملك العقرب يتحرك للحظة في الهواء قبل أن يسكن قاع الزجاجة، ويغلقها الرجل عليه. ارتعبت، و لم تعلق، ولا هو.

– مستني منك رد.. وعلى فكرة دي موقعها حلو جدًا.

قال ذلك وهو يقترب من إحدى المقابر، وراح يخبط عليها كأنه يؤكد جودتها.

شعرت بانقباض غريب، ونظرت له دون أن ترد.

(5)

وصلت همهمات الجنازة إليها، وللمرة الأولى، انتبهت الأرملة ونهضت - قبل التلميذات - متجهة إلى البلكونة.

الشارع الذي تعيش فيه مست هو أقصر الطرق للمقابر من الـ"جامع الكبير"، كما أنه أكثرها استقامة.. ولأنه ممهد فقد كان ملائمًا للسير بالنعوش دون إقلاق للموتى. كان أيضًا هادئًا، لا يلعب فيه الأطفال الكرة، لأن أغلب قاطنيه كانوا عجائز نافدي الصبر. بشكل شبه يومي، كانت جنازة أو أكثر تعبر الشارع. تصل الهمهمات والتكبيرات والجلبة إلى الصالة الواسعة.. فتترك التلميذات كل شيء ويتجهن بعفوية نحو البلكونة، يتزاحمن، ليخمن من الميت.

كانت ملك تندهش من تعاملهن مع الموت بهذه الخفة، و يقلقها عدم تأثرهن - رغم أن الميت كان في العادة شخص يعرفنه - وكأن ما يرينه غير حقيقي. لم تقتنع أبدًا بأن السبب أعمارهن الصغيرة.. إنها تتذكر أنها في

مراهقتها كانت ترتعد، وتظل مقبوضة وخائفة لأيام بعد كل جسد يذهب إلى التراب.

تحتل الفتيات البلكونة، يتزاحمن ويتشاجرن. كل واحدة تريد أن تحجز مكانًا يضمن لها رؤية واضحة. تناديهن مرة بعد أخرى و لا يعدن إلا بعد مغادرة الجنازة. يظل الحديث قاصرًا لدقائق على الميت، اسمه وعائلته وملابسات وفاته. تكمل كل واحدة معلومة ضرورية تعرفها.. وتكون النتيجة حكاية شبه مكتملة عن شخص عاش ومات في دقائق على منضدة الدرس. لم تكن تعلق أو تستفسر. كانت فقط تتأمل وجوههن المشربة بحمرة الفضول ـ رغم أن أغلبهن فقيرات، وتبدو فساتيهن كأنها انتقلت لهن من أجساد أخرى ـ وهن يكملن معًا إحدى الحكايات. رغم ذلك كانت ملك ممتنة لهن، لأنهن ينزعن عن الموت ـ ببساطة ـ وقاره الداكن.

تتذكرهن في لحظات وحدتها، عندما تعبر جنازة في الليل أو في آخر الفجر. تنتابها رجفة، وتتلصص من خلف الزجاج على المشهد الشبحي. ترتجف وتذوب، كأنها ترى جنازتها.

فكرت ملك كثيرًا في مشهد موتها، والذي بدا دائمًا قريبًا منها، خاصة وأنها شاخت قبل زمن ليس بالقليل. لم يتبق من أسرتها سوى أقارب بعيدين، وأبناء عمومة لا تعرف عنهم شيئًا. بدا لها مشهد موتها طريفًا رغم كل شيء. نعشها يتحرك على أكتاف أربع مراهقات.. ومن

خلفه قطيع التلميذات في الرداء المدرسي الموحد. يحكين حكايتها التي لا يعرفها أحد ويتضاحكن. يكملن لبعضهن الحكاية. لا أحد يعرفها هنا سوى هؤلاء العاشقات البائسات.

وجدت نفسها لأول مرة تزاحمهن لترى الجنازة. اندهشت ـ وهي تتطلع لوجوه الجارات ـ عندما رأت الحماس الغريب للموت. تقول فتاة:

– الحاجة الوحيدة اللي بتحصل هنا إن حد يتجوز أو حد يموت.

كانت الظهيرة خانقة. ولأول مرة تكتشف مدى كم هي قريبة من المقابر.

سألت رجاء فور صعودها:

– مين اللي مات ؟

ضحكت رجاء قائلة:

– يعني لو قلتلك هتعرفي يا أبله ؟

صمتت كأن تلك هي إجابتها، فكررت ملك:

– مين مات يا رجاء؟

– الست أم يحيى الخطاط.. اللي عند سوق السمك.

– ماتت ازاي ؟

نظرت لها رجاء باندهاش، ثم أجابت بنبرة لا تخلو من سخرية:

– ماتت موتة ربنا.. صحيو لقوها ميتة في سريرها.

تعمل رجاء على تنظيم المواعيد وتحصيل النقود من البنات، وتجلس على مكتب حديدي صغير يجاور باب الشقة، هو الشيء الوحيد الناتئ في المكان العتيق.

تريد ملك أن تخبرها بأمر الخطاب المجهول، ولكنها لا تعرف كيف ستفعل ذلك. ظلت علاقتها برجاء طيلة الأعوام الثلاثة الفائتة عملية.. رغم أن مهام رجاء اتسعت داخل الشقة ـ دون أن تطلب الأرملة ـ حتى صارت تنظف وتطهو الطعام أحيانًا. صارت رجاء يومًا بعد آخر شريكة حقيقية لحياتها رغم أنها لا تعرف شيئًا عما يحدث، على الأقل ظاهريًا.

– في حاجات غريبة بتحصل في البلد.

قالتها الأرملة دون أن تغير من نبرة صوتها العملية، وبدت رجاء مندهشة للحظة، ولكنها أجابت:

– ما فيش حاجة يا أبله.. البلد دي أوضتين و صالة.
وأكملت ضاحكة:
– يعني شقتك دي أوسع منها.
تتمتع رجاء بروح مرحة، تكاد تكون إباحية. وتعرف الأرملة أنها تتأدب قدر ما تستطيع في وجودها.

– كنتي فين كل ده؟
– قعدت تلات أيام آجي كل يوم واخبط وانتي ما بتفتحيش.. قلت أكيد سافرتي.. والبنات في المدرسة برضه كانو بيخبطو عليكي و مش بتفتحي.. وهم اللي قالولي انهاردة انك رجعتي.

رجعتي !!. تأملت الأرملة الكلمة مرتعبة. قالتها رجاء بعفوية. سألت نفسها وأجابت. هكذا ببساطة. هذه هي طريقتها في الحياة.

بطريقتها المتحذلقة فكرت ملك أنها بالفعل كانت في رحلة ما، وعادت منها امرأة أخرى.. تفكر في المجهول.

تجرأت وسألت رجاء:
– ما فكرتيش أن ممكن يكون حصل لي حاجة مثلاً ؟

أجابتها رجاء إجابة رأتها بلا معنى:
– ربنا يديلك طولة العمر يا أبله.

تقول كلمة " أبله " بسوقية محببة. كانت تفكر دائمًا أن الشيء الوحيد غير المستعار في وجه رجاء هو عيناها. بخلاف ذلك كان وجهها غائبًا تحت طبقة ثقيلة من المساحيق ولشعرها لون أحمرداكن.

تهامست الفتيات عن مدرس جديد تعرفت عليه رجاء قبل أيام.

– نفسها تتجوز مدرس..

– اشمعنى ؟

– ماهي أي واحدة في شغلانة بتبقى نفسها تتجوز أعلى حاجة فيها.. زي الممرضة ما بتحب تتجوز دكتور.

ويضحكن بصخب. كن يتعاملن مع رجاء بإباحية غريبة، ورغم أنهن كن يخفين ذلك أمامها.. إلا أنها شاهدت بعض المداعبات التي كانت تفلت دون قصد. عندما عدن إلى الصالة، قالت رجاء بتأنيب:

– شوفو مذاكرتكو بدل المياصة.. ده ما فيش واحدة فيكو جايبة قلم معاها.

– ردت عليها واحدة:

– العلم في الراس يا رجاء.

وضحكت البنات، فما كان من رجاء إلا أن أزاحت الجيبة لأعلى، وأشارت إلى عانتها قائلة:

– انتو العلم عندكو هنا.

تعالت الضحكات من جديد، كادت ملك تصاب بالغثيان، إلا أنها تظاهرت بالتقليب في بعض الكراريس، قبل أن تقول بجدية:

- يللا نكمل.

بدأت تتعرف أيضًا على رجاء، التي تعمل معها منذ ثلاثة أعوام دون أن تعرف عنها شيئًا سوى أنها عاملة في مدرسة البنات.

- دي شايفه نفسها ع الفاضي.. اللي يشوفها خارجة من المدرسة بالجيبة المحزقة ومناخيرها في السما ما يشوفهاش وهي بتمسح البلاط بفستان مقطع.

كانت البنات يحقدن عليها، لأنها تخبر عن مخالفاتهن للمديرة.

- أصلها معقدة.. دي بتتمشى مع طلبة الصنايع ع الكورنيش واتاخدت على "القسم" كذا مرة.

ذات يوم طرقت رجاء بابها، وطلبت أن تعمل على تنظيم مواعيدها والتكفل بمهمة تحصيل النقود من الفتيات أول كل شهر. انزعجت ملك يومها، ليس فقط من طريقتها الجريئة في طلب العمل لدى امرأة لا تعرفها.. و لكن من طبيعة المهنة التي اختارتها لنفسها.

- كل المدرسين في البلد عاملين كدة.. حضرتك مش عارفة فعلاً؟ اسألي بناتك.. وعلى فكرة أنا اقدر أجيب لحضرتك بنات كتير للدروس.

ظنت رجاء أنها قدمت إغراء عظيمًا لملك، عندما ابتسمت أكدت:
– هتشوفي.

عندما رأتها البنات لأول مرة حذرنها:
– على فكرة دي اشتغلت عند كذا مدرس وسمعتها مش تمام.

لم تتهمها البنات بالسرقة فاطمأنت ملك، وغضت الطرف عن انحرافاتها التي لن يكون لها وجود في هذا العالم الأنثوي.

منذ اللحظة الأولى لمجيئها، أعلنت رجاء – دون أن تطلب ملك– عن ملكاتها كخادمة. بدأت تتحرك في المطبخ وتعد الطعام، وتكنس الشقة، وترتب الأوراق المتناثرة. فعلت ذلك بحيوية ودون خجل كما لو كان جزءًا من عملها. وفي الأوقات التي لا تجيء فيها البنات، كانت تخلع ملابسها وترتدي جلبابًا، وبعد ذلك ـ خاصة في شهور الصيف ـ صارت تتحرك في الشقة بقمصان نومها التي يترجرج فيها جسدها، مكتفية بالخدمة لعدم وجود تلميذات. لم تعلق ملك أبدًا، فلم يكن يزعجها سوى فضولها للتعرف عليها بشكل أفضل، و هو ما قتلته فيها ملك منذ الأيام الأولى بالصمت البارد حيال أي سؤال شخصي.

في شهور الصيف كانت مَلَك تعيد قراءة خطابات العام الدراسي الفائت المكتوبة بخط يدها، كي لا تفقد لياقتها.. و لتحسّن أيضًا من

أدائها، وتشعر بإحباط شديد و هي ترى الهنات هنا و هناك و يصيبها الخجل. تراها رجاء منهمكة في القراءة على المنضدة، وتسأل:

– ايه ده يا أبله.. هو في مذاكرة دلوقت ؟

و لا تجيب ملك كالعادة.

في العام الأخير فقط قررت أن الوقت قد حان كي تعيد كتابة خطاباتها القديمة كما كان يجب أن تُكتَب في حينها. كانت الفكرة صعبة، و بلا طائل.. لكنها أرادت أن تتخيل شكل حياتها إن أعادت كتابتها الآن. قالت لرجاء ذات يوم:

– ما تجيش بكرة.

لم تقدم مبررًا، وأومأت رجاء دون أن تسأل:

– حاضر.

ظلت طيلة اليوم تقرأ خطاباتها كي تختار واحدًا تبدأ به. شعرت بسعادة لأنها قادرة الآن على أن تبدأ حياتها من أي نقطة، ودون التقيد بترتيبها المنطقي. ولكنها قررت أنها لو فعلت فسيكون ذلك أحد أشكال الخيانة. بدأت بالخطاب الأول، والذي كان الأصعب. كان خطاب تعارف مختلس ويفتقر إلى أبسط أشكال التماسك. وبعد يوم من العناء، شعرت ملك بالندم

يمزق أوصالها. كتبته عشرات المرات كما هو، بفواصله ونقاطه المرتجلة.. لم يكن من الممكن أن تصدق أن كل هذه السنوات عبرت لتكتشف أنها لا تزال في نقطة الصفر. مزقتها جميعًا بغضب، واستبقته. ظلت تعيد قراءته مرة بعد أخرى، وقرب الفجر، اتجهت إلى سريرها منهكة وعلى وشك العمى. اكتشفت أن الحل المثالي لم يكن في كل ما فعلته.. لأن هذا الخطاب لم يكن من المفترض أن يكتب.

(6)

احتاجت وقتًا كي تصدق أن يناير آخر عبر وجهها دون أن تموت.

استيقظت مؤرقة، والتقطت الخطاب من تحت المخدة، محدسة أن له علاقة بصداع رأسها. عندما أمسكته بيديها شعرت بنفس الرجفة، كأنها تتلمسه لأول مرة. نفس الورقة التي ذابت حروفها واختفت معالمها تحت ثقل تجاعيد غامضة. لم تخرجه منذ اليوم الأخير في ديسمبر، ورأته الآن أكثر غموضًا، رغم أن شيئًا لم يتغير.

لا تعرف ملك ماذا تريد حقيقةً من تلك القصاصة: أن تتمكن من قراءتها، أم أن تعرف من أرسلها، أم أن تكتشف كيف وصلت إلى سريرها؟. ورغم أنها كانت متأكدة من استحالة أن تعرف، إلا أنها صارت مفتونة بالسر. كانت تشعر أن ما حدث أجل موتها بشكل ما. و بعد فترة صارت تستمتع بالسؤال نفسه.

انحنت على حافة البلكونة. تركت رأسها تستريح على مرفقيها، واستسلمت لكآبة الأيام الأولى من العام. أيضًا.. استعادت خوفها ـ الذي يتكرر مع مجيء كل عام ـ من أن يكون الأخير لها في الحياة.

مع الأيام الأخيرة من ديسمبر بدأ مزاجها يتغير، وأكثرت من زيارتها للمقابر. وعندما جاء يناير هيأت نفسها للموت.

رأت رجاء جالسة إلى مكتبها، تقلب في دفاتر قوائم البنات.
– بتعملي حاجة ؟
– خير يا أبله..

أشهرت مفتاح الشقة في وجهها وقالت:
– عايزاكي تعملي نسخة كمان من مفتاح الشقة.
– حاضر.

قالتها رجاء وهي تنهض، دون أن تسأل عن السبب: بعد دقائق عادت بنسخة المفتاح الجديدة، ومدت يدها بهما لملك.
– النسخة دي خليها معاكي.. ولو في يوم خبطتي على الباب وأنا ما فتحتش ادخلي علطول.

نظرت لها رجاء باندهاش وظلت تحدق في وجهها مستغربة.
- حطيه في شنطتك واوعي يضيع.
- حاضر.

من جديد استدارت رجاء نحو مكتبها. أخرجت حلقة المفاتيح وأدخلت المفتاح فيها ثم أعادتها للحقيبة.

فكرت ملك أن تمنحها وصية، ولكنها اكتشفت أنها لا تعرف ماذ يجب أن يحدث إن ماتت.

- أنا هاخد الأسبوع ده أجازة.. قولي للبنات.
- الأسبوع ده أجازة نص السنة أصلاً.. أنا براجع الكشوف بس.

تبدو رجاء على الدوام مخلصة لتلك الكشوف، تراجعها مرة بعد أخرى، رغم أن ملك لم تسألها عنها أبدًا.

ظلت طيلة أسبوع لا تفتح النوافذ، ولا تخرج إلى البلكونة. كأن الموت ينتظرها في الخارج. كانت على يقين من أنها لو فعلت ستتفتت عظامها في وقفتها.. ستذوب في لحظة ولن يتبقى منها سوى فستان فارغ، مكوّم على أرضية البلكونة. كان يناير في هذه المدينة شهر وداعات.. وكانت

جنازاته كثيرة، ولياليه طويلة تتناقص معها النهارات يومًا بعد آخر حتى تصير أيامه الأخيرة بلا شموس.

عندما تجرأت أخيرًا وخرجت إلى البلكونة، قابضة بيدها اليمنى على الخطاب، هاجمها هواء أصفر خانق، وبدأت ذرات كبيرة من التراب تلتصق بوجهها كذباب أصم. رأت البيوت من خلف دوامات الغبار تهتز وتغيم. كانت هناك آلتا رصف، تسدان مدخلي الشارع من الجهتين، وتعملان بهدير مدمر للأعصاب. اندهشت ملك عندما اكتشفت أنها سمعت الصوت الزاعق الخشن بعد أن رأت المشهد بلحظات، ولكنها أرجعت ذلك لمتاعب أذنيها.

سيعيدون رصف الشارع. عرفت من تلميذاتها أن المحافظ الجديد بدأ عمله بتحويل المدينة كلها إلى آلات رصف و هواء ترابي.

– مفيش شارع يتمشي فيه.. فتحوا بطن البلد يا أبله.

إنه نفس الرجل النحيل الصارم الذي له هيئة ضابط جيش، والذي رأته قبل أيام وسط رجال ببذلات داكنة، يشير هنا وهناك بطريقة رأتها بلهاء. اضطرت الجنازة التي دخلت الشارع يومها للعودة بإشارة من أعوانه. دار الميت دورة كاملة على الأكتاف المنهكة ليتخذ طريقًا جديدًا إلى آخرته. مال النعش قليلا في لحظة، ثم سقط مثيرًا غبارًا كثيفًا، وارتفعت التكبيرات

والهمهمات. في لحظة صار كل الرجال حول النعش، يعيدون النهوض به، بينما بقي الرجل الصارم وحيدًا ينظر للأرض. قرر أيضًا نقل المقابر، التي لم تعد في أطراف المدينة كما كانت قديمًا. فمع تمدد المدينة صار الموتى يقطنون قلبها النابض.

- ده كمان بيوسَّع الشوارع ويهد الجوامع.. ومنع الصلاة في الخلا يوم الجمعة. الناس كلها متضايقة منه.

تتحدث التلميذات بصخب الدجاجات المعتاد، لكن دون اهتمام حقيقي بما يحدث. أشياء قليلة جدًا تهمُّهم فعلاً.

-... و نقل موقف الأجرة برَّا البلد.. علشان ينضَّف مكانه.

- طب ما هو كدة هيوسَّخ حتة تانية.

و تنفجر ضحكاتهن.

فكرت فجأة أنها - و منذ سنوات - لم تعد تعرف شيئًا عن المدينة إلا من خلال هؤلاء البنات، اللائي لا يعرفن شيئًا بدورهن إلا من خلال الآباء، وأن لا أحد هنا تقريبًا يعرف شيئًا من تلقاء نفسه.

غالبت اختناقها بالنظر للسماء، وقد شعرت بقدر من الطمأنينة لأنها لم تمت في وقفتها. بدت السماء أيضًا شاحبة، وغير مستوية. صفحة بلا لون تتخللها فجوات داكنة مثل حُفر. كأن آلات مشابهة، غير مرئية ولها صوت أقل حدة، بدأت العمل فيها.

اتجه ثلاثة رجال إلى اليافطة النحاسية ونزعوها. أمسك بها أحدهم بين يديه وأخذ يقلبها، وضغط بإصبعين على جانبها فتفتت جزء. قال شيئًا فضحكوا.

"شارع السبع بنات".

شاخت اليافطة، وماتت ست بنات من الراهبات السبع اللائي فتحن المستوصف في هذا الشارع قبل ستين عامًا، و لم تبق منهن سوى راهبة واحدة تدير المستوصف وحدها. أظهر الرجل يافطة أخرى، حديثة، زرقاء ومصقولة، وبدأ يثبتها. " شارع الشيخ..... ". لم تكمل قراءة الاسم، فقد صعقتها المفاجأة.

في لحظة برزت الراهبة العجوز من الفراغ، وراحت تكنس الأرض بمشيتها الغريبة مقتربة من الرجال. بدأت تهمهم معهم، و بعد لحظات احتدت. بدأت تطوح بذراعيها في الهواء في وجوههم. علا صوتها،

ونفرت العروق في وجهها، ولكن هدير الآلات علا أيضًا.. فصاروا يحركون شفاههم دون صوت.

استدارت الراهبة من جديد. راقبتها ملك إلى أن اختفت في المستوصف. رؤيتها للراهبة أيقظت فضولها. لابد أنها تعترض على تغيير اسم الشارع. شعرت ملك أيضًا بأن الشحم سد أذنيها تمامًا.. و تذكرت أن موعد زيارتها الشهرية للمستوصف كان منذ عدة أيام، ولكنها أجلته في نوبة احتضارها السنوية.

تحركت إلى الصالة، وراحت تقلب الكراسات. خطابات جديدة، تنتظر عينيها و يدها و قدرتها على التقمص. لم تعد ترغب.. كأنها شاخت الآن فقط. تحرَّك شبح زوجها خارجًا من الحمام، توجه بهدوء نحو غرفة النوم. تكررت زياراته في الفترة الأخيرة، وفي النهاية صار شبه مقيم في الشقة. بدأ بالمنامات. يدخل إلى الغرفة، شاحب كالعتمة ولكن الذهب الذي يملأ جسده يلمع في الظلام. يفتش الدولاب و أدراج الكومودينو والتسريحة كمن يبحث عن شيء بعينه ثم يخرج تاركًا فوضى عارمة. بدأ بعد ذلك يتحرك في أحلام يقظة مرعبة. تكون جالسة مع البنات وتراه فجأة يقطع الصالة. عارٍ تمامًا إلا من الذهب، ويتثاءب دائمًا. عضوه ضخم ومرتخ. لم يكن يحلم في حياته بأن يكون له عضو مثل ذلك الضامر. تظل ملك تحدق في نقطة في الفراغ، وتلتفت التلميذات حين يلاحظن طول تحديقها، ويسألن أحيانًا:

– فيه حاجة ؟

هنا فقط تكتشف أنها يجب أن تغادر متاهات رؤاها، وتسمع صوتها، قادمًا من حنجرة امرأة أخرى. تنصت لنفسها وهي تقول:

– لأ ما فيش.. احنا وقفنا فين ؟

في هذه اللحظة فقط تصدق بالكاد أن ما رأته لا يخص سوى عينيها. أحيانًا كانت تشك أن الخطاب بدوره ليس إلا أحد ضلالاتها.. وأنها لو جربت أن تطلع أحدًا عليه لن يرى سوى كفين مفرودتين على الهواء. رغم ذلك كانت تعود إلى الواقع بمجرد أن تتحسسه، متأكدة أن تلك الورقة الصغيرة، ممحوة الملامح، هي وجودها الوحيد.

لن تحتمل أن يخبرها أحد أنه غير موجود، أو حتى يشكك في ذلك ،كما لم تعد تتخيل يومًا واحدًا تحياه بدونه.

كوَّمت الكراسات، وأمسكت بالخطاب من جديد. هناك شخص ما.. في مكان ما.. يتعذب الآن.. يقتله الانتظار. مع كل جنازة تمر تخمن أن ذلك الغائب في نعشه قد يكون من تبحث عنه. لكن.. حتى لو فعلتُ ـ تسأل نفسها ـ إلى من سأرسله؟. هل أطلقه للريح أيضًا؟ صارت تشعر أنها يجب أن تبقى حية، فقط، لتعرف. و لم تستطع أن تصدق أنها عادت لتكتشف كل ما حولها بكل القسوة الممكنة.. مغادرة مدينة الحوائط التي لا وجود لها خارج جدران شقتها.

(7)

في لحظة ما، تستنشق الأرملة الهواء بعمق، كأنها تبتلع الشارع الضيق نفسه. تشعر بألم في أحشائها.. غير أنها تزدرد لعابها بسرعة، لتنام الغرف، والأضواء الشحيحة، وأنفاس الناس في أمعائها. تقف في البلكونة، تمرر يديها من بين الفرجات. تمررهما أيضًا على نقوش الأسيجة المعدنية الصدئة، وتباغتها الذكرى. للذكرى رائحةُ ترابٍ ممزوجٍ بماء مطر شحيح.. ونبتات قليلة تستيقظ، وشبابيك مواربة.

المقابر هناك. تحت القمر تمامًا. المقابر مضيئة.. عكس بيوت المدينة. فجأة تتوالى طرقات خفيضة على الباب. تجيء فتاة. كيف تسللت من بيتها في الفجر ؟ كيف عبرت الشوارع الموحلة ووصلت إلى هذا الباب بحذاء نظيف ؟ إنه الحب. تسأل الأرملة نفسها وتجيب. تستلقي الفتاة على أقرب كرسي. يخفي شعرها جبينها، وتبكي. أي فتاة تلك ؟.. تسأل الأرملة نفسها. العاشقات كثيرات، وآلام الحب واحدة، تمامًا كسعاداته. تضطر للعودة إلى الخطابات التي تخصها. لكل فتاة خطاباتها ـ المكتوبة بخط

ملك - والمربوطة بشريط رقيق لكنه قوي، عليها اسمها. تتشابه حكايات الحب.. مصادفات اللقاء السريعة، الفجائية، وترتيبات الوداع الطويلة. تخمن أن لكل دموع الحب نفس المذاق حتى لو اختلف اسم العينين في كل مرة.

النسخُ الأصلية من الخطابات، والمكتوبة بخط يدها، كانت تحتفظ بها في صندوق اشترته خصيصًا من أجل تلك المهمة. تعرف أن هذه الفتاة ستنساها ذات يوم. كلهن يفعلن ذلك. بمجرد زواجهن تنساها الفتيات تمامًا ولا يعدن لزيارتها، وتقابل الأرملة ذلك بتسامح، لأنها تعرف أن النسيان قدر كل شخص اختار أن يبني مملكته في الظل. كانت مستمتعةً فقط بلعبتها، تتلقى النتائج بارتياح.. متمنيةً في أعماقها لو عادت شابة صغيرة.. ولكنها كانت تقول لنفسها: " لو عدت شابة لن أستطيع كتابة هذه الخطابات.. وسأفشل من جديد ". الشيء الوحيد الذي كانت حريصة عليه هو احتفاظها بالسرية. وقد خشيت من افتضاح الأمر خاصةً مع ازدياد زبوناتها.. حتى صارت غرف المنزل أشبه بفصول دراسية تكتظ بالعاشقات وتسيل في طرقاتها دموع اللوعة.. وكانت الفتيات أشد حرصًا منها على هذه السرية، لأن أي مساس بها كان يعني - بلا مواربة - نهايتهن المُهينة.

تسألها فتاة، وثانية، وثالثة: من كان زوجك؟ وتجيب مرة وثانية وألف: رجل.. كأي رجل في الدنيا. لن أقول لكن: كان صائغًا في المدينة

الكبيرة، يربي كلبًا ليحرس ماله، وأثاث البيت، وجسدي. وكنت أنا المرأة التي لا تغادر الغرف. لم أتخل عن عاداتي أبدًا يا صغيراتي. فقط، أزحت غطاء الرأس، ليواجه شعري الدنيا لأول مرة وأنا في الثانية والعشرين. فقط، كشفت ساقيَّ قليلاً، وعريت ذراعيَّ. صارت ملابسي أكثر بساطة وضيقًا.

هل أحكي لكن الحكاية ؟ لكن حذار.. إنها حكاية حقيقية حتى أنها لا تُصدَّق. كان أبوها يشتري لها سلسلة. رآها الصائغ، وقرر ـ بينما تلامس أنامله عنقها بدربة ـ أن هذه الفتاة ستكون زوجته. بعدها جاء إلى البيت بلا موعد. لم يصطحب معه أحدًا سوى الذهب. كيف عرفتَ العنوان ؟. في مدينتكم يكفي أن يسأل الشخص عن الإسم.. إنها بلدة ضيقة حتى أن الإسم لا يحمله شخصان. وحتى لو لم أعرف الاسم.. يكفي أن أصف الشكل.. صدقيني.. لقد أخبروني بمكان بيتكم قبل أن أسأل !.

في اليوم السابق، السابق مباشرة والله.. أعاد لها حبيبها خطاباتها الغرامية، كما طلبت، وردَّت له خطاباته. دون أن يتفقا، سلَّم كل منهما الآخر خطاباته إلا واحدًا. لأنه رجل، احتجز آخر خطاب أرسلته له، كعلامة على الذكرى.. ولأنها امرأة، احتفظت بالخطاب الذي لم يقل فيه كلمة" أحبك".. لأنه الخطاب الذي قال فيه كل شيء.

– وماذا حدث.. هه ؟.. إنها حكاية خيالية حتى أنها قابلة للتصديق!
– أنتن بنات فضوليات. فضوليات جدًا.. وهذه صفقة ساذجة. هل لأنني أعرف كل شيء عنكن تعرفن كل شيء عني؟؟.

حسنًا.. أخفت الصغيرة ملك خطاباتها، وخطاب حبيبها الوحيد، في حقيبة يد صغيرة، وزجت بها في قاع دولاب زواجها المعتم.. وقررت أنها لن تعود لقراءتها إلا بعد أن يموت الصائغ. وكانت تقول لنفسها: قد أموت أولاً ويقرأها هو بعد أن يعود من جنازتي غائبًا في مذاق التراب.ولكن الرجل ربح رهاني. مات أولاً، وتكفل أبناؤه الأقوياء، الصاغة، الذين تحرس الكلاب بيوتهم، والذين تزوجوا من الريف تنفيذًا لشرطه، بكل شيء. إنهم أبناؤه من زوجته الثانية.. ابنة المدينة.. التي تزوجها حين يأس من رحمي. نعم لم أنجب. ولم أندهش لذلك، ولم أحزن. استسلمتُ للكلب، موقنةً أن هذا المخلوق المظلم يقف عند الباب ـ فقط ـ ليحرس وحدتي. يموت، وأستيقظ في الصباح التالي على نفس النباح، نفس الجسد، نفس الطوق حول الرقبة. عشرات الكلاب تبادلت حراستي دون أن أميز، ولو لمرة، متى يموت أحدهم ليولد الآخر.

في المدينة الكبيرة يا بنات، على سطح الفيللا الواسع المبلط، كنت أنبطح على بطني.. أكتب خطابات وأتركها للريح. من سيقرأها ؟ لا أعرف، ولا يهم. المهم أن أنتقم من هؤلاء العمليين الذين لا يرون البحر إلا من شرفات بيوتهم. كنت أنثرها كما تنثر ريفية الحب للدجاج.ذات

يوم حدثني زوجي عن الخطابات التي تتساقط فوق الناس من السماء. قلت له أنت كاذب.. لم يرد. لم يصفعني، و لم يبك. انتظر حتى سقط أحدها، في يوم آخر، أمام عتبة محله. التقطه، ومنحه لي عندما عاد ليدلل على أن ما يقول ليس أحلام يقظة.

كفى يا بنات. هل حقًا أخبرتكن بكل ذلك أم أحدث نفسي ؟.

ملك الآن امرأة تتمشى في شوارع المدينة، تلمح تلميذاتها القديمات مع أطفالهن و أزواجهن.. و تتظاهر بأنها لا تعرفهن، و هكذا يفعلن أيضًا. ترى فتياتها الصغيرات في الشوارع الجانبية مع عشاقهن، فتعبرهن بسرعة.

هؤلاء العشاق بالذات أدمنوا خطاباتها المكتوبة بخطوط فتياتهم الساذجات. كانوا في الحقيقة مشدودين لسحر الخطابات المكتوبة بدماء قلب لا يزال ينزف، والتي بسببها فقط تحققت زيجات ما كانت لتتم في الظروف العادية. كان الشباب يعترفون لأنفسهم سرًا بأن تلك الرسائل أشبه بمعجزات من الورق والحبر.. وأنها ربما تكون الذكرى الوحيدة التي ستبقى ذات يوم بعيد قادم، حين يفقد كل شيء سحره بفعل العادة، وحين تتوقف الخطابات مع تحول الحب المعذب إلى زواج رتيب. تفكر ملك، وتقول لنفسها كنوع من العزاء: أنا العشيقة المجهولة لكل هؤلاء الرجال.

(8)

سقطت قطعة الشحم البنية على سطح المكتب الخشبي، ثم هزت ملك رأسها للناحية الأخرى، فتبعتها الثانية. لهما نفس شكل الأذنين. تلمستهما ملك. كانتا هذه المرة أكثر صلابة.

أحست بنقاء أذنيها لدرجة أربكتها، وهُيئ إليها أنها تسمع صوت الصمت نفسه مضاعفًا.

– أهلاً بيكي يا مدام.

قالتها الراهبة للمرة الثانية. طريقة غريبة. ترحب بها من جديد فور انتهاء العمل، كأنها تفترض أنها لم تسمعها جيدًا عندما قالتها أول مرة.

ردت ملك:

– أهلاً بيكي.

نهضت الراهبة، وفتحت ضلفة الدولاب الخشبي الصغير خلف رأسها، وأخرجت منها زجاجة صغيرة، ثم مدت يدها بها لملك.

- القطرة.

وابتسمت.

منذ عامين، لم تدخل ملك إلى مكان مغلق إلا المستوصف، وكانت الراهبة ـ بشكل ما ـ صديقتها الوحيدة. رغم ذلك كانتا تتفاديان الحديث في أمور شخصية. حاولت الراهبة أن تفعل ذلك في البداية بود ولكنها لم تلق من ملك استجابة حقيقية. كانت تكتفي بردود مقتضبة، لذا صارت أحاديثهما تقتصر على المواضيع العامة. وكانت الراهبة تتحدث أكثر لأن ملك لم تكن تعرف شيئًا تقريبًا عما تقوله، فلم تكن ترد سوى بإيماءات متحمسة لا معنى لها. عندما تنفعل الراهبة في موضوع ما، كانت تخرج الجرائد من الخزانة وتفردها بينهما على المكتب، وتقرأ الخبر نفسه في ثلاث أو أربع جرائد لتقف على الفرق هنا وهناك، مخمنة ـ مع ملك ـ أين يمكن أن تكون الحقيقة. كانت امرأة وحيدة، وضاعف من وحدتها موت رفيقاتها واحدة بعد الأخرى.. وتقلّص الزبائن حتى أن ملك نادرًا ما اضطرت للانتظار حتى تدخل.

قررت ملك أن تبادر هذه المرة، خاصة وأن الفضول لمعرفة ما حدث كان يقتلها، قالت:

- شفتك امبارح بتزعقي في الشارع مع بتوع الرصيف.

- دول بتوع المجلس المحلي.. غيّروا اسم الشارع.

صمتت الراهبة لحظة. فتحت درج مكتبها العريض ونظرت بداخله، همت بأن تفعل شيئًا ولكن بدا عليها التردد، فأغلقته مرة أخرى. أكملت:

- أنا مش معترضة يا مدام.. وأرجوكي ما تفهمينيش غلط.. مع احترامي للشيخ اللي حطوا اسمه.

- أكيد.

- أنا قلتلهم براحتكو.. بس الشارع حيفضل بالنسبة للناس شارع السبع بنات.. ده بقاله ستين سنة اسمه كده، وقبلها ماكانش له اسم أصلاً.. ومش احنا اللي طلبنا ده وقتها.. وطلبت اليافطة اللي شالوها.. رفضو يدوهالي.. وواحد فيهم قاللي توكلي على الله يا حاجة.

صمتت من جديد، وشردت قليلاً، ثم سألت ملك فجأة:

– الشارع هيفضل اسمه كدا عند الناس.. صح ؟

أومأت ملك موافقة بهزة قوية من رأسها.

– أصل الحاجات دي مش بتتغير كدة بين يوم و ليلة.

–.....

– وبعدين مفروض يكتبو بخط رفيع تحت الاسم الجديد شارع السبع بنات سابقًا.. دي أصول معروفة.

نفخت الراهبة وهي تخبط كفًا بكف، ثم سألت ملك:

– وأخبار بناتك إيه.. مش بخير ؟

انقبض وجه ملك فجأة، واحتاجت لحظات لتستوعب أنها تقصد التلميذات.

– الحمد لله.

تنهدت الراهبة، وقالت كأنها تحدث نفسها:

– لازم آخد اليافطة.. دي من يوم ما اتعلقت ما عداش يوم من غير

ما ابص عليها.. أنا هطلب أقابل المحافظ.. همًا مش هيعملو بيها حاجة لكن أنا محتاجاها.

همت ملك أن تسألها عن سبب حاجتها لها، ولكنها اكتشفت أن السؤال يفتقر إلى اللياقة.

فتحت الراهبة الدرج مرة أخرى، ونظرت في محتوياته قليلاً.. ثم أخرجت علبة صفيحية، فتحتها أمام ملك.

- سيجارة ؟
- متشكرة.. ما بدخنش.

أشعلت سيجارة لنفسها. أول مرة تراها ملك تدخن، وأحست بشيء من التناقض بين هيئتها المتقشفة وطريقتها النهمة في التدخين. ولاحظت لأول مرة أن أسنانها داكنة تمامًا.

- هما صحيح هينقلوا الترب ؟
- بيقولو.
- بس ترب الأقباط في حتة بعيدة.. هينقلوها هي كمان ؟
- ما عنديش فكرة.
- وحضرتك كنتي فين قبل ما ترجعي البلد ؟

– في مصر.. اتجوزت هناك وفضلت عشرين سنة.. و لما جوزي مات رجعت.
– بس حضرتك على ما اعتقد بتدي دروس للبنات بس.
– أيوه.. أصل طول عمري كنت في مدرسة البنات.. بس ما كانش في دروس وقتها طبعًا..

ضحكت ملك ضحكة خفيفة ثم أكملت:
– لما رجعت لقيت في دروس لكن ما فيش مدرسة.. وبدأ زملاتي القدام يرشحوني للبنات ياخدو درس عندي.. في الأول ما استوعبتش الفكرة بس قالولي جربي.. آديكي بتتسلي.. لإنهم عارفين ان ما فيش حاجة اعملها هنا.
– أمال رجعتي ليه ؟
– علشان اموت.

شحب وجه الراهبة من الإجابة غير المتوقعة لمريضتها. الإجابة لم تتوقعها ملك نفسها بهذه الحدة. حاولت أن تخففها فقالت:
– جيت ادور على تربة.. احنا ملناش ترب هنا.. أبويا وأمي اتدفنو في مقابر الصدقة.
تجرأت الراهبة أكثر، و قالت:
– أصل شكلك مش من هنا خالص.. سايبة شعرك وبتلبسي هدوم

قصيرة.. الستات هنا كلهم بحجاب وفساتين واسعة. زمان ما كانش كدا.. انتي طبعًا فاكرة.

أومأت ملك موافقة. تتحدث معها الراهبة دائمًا بمنطق أنهما في نفس العمر، رغم أنها في طفولتها كانت الراهبة شابة.

فجأة حل صمت ممل، و شعرت ملك أن الراهبة لن تتركها هذه المرة حتى تعرف كل شيء عنها. و في اللحظة التي رفعت فيها ملك جذعها من على الكرسي لتنهض، قالت الراهبة و هي تتذكر شيئًا:

- صحيح.. في حاجة غريبة حصلت عندك الشهر اللي فات و نسيت اسألك..

- ايه ؟

- يومها كنت ماشية لوحدي الصبح، رايحة اشتري الجرايد من على المحطة.. و فجأة لقيت حجر كبير طاير على بلكونتك.. استغربت.. أصله كان ضخم قوي لو جه في حد يموته.. فضلت باصة لغاية مالقيت القزاز بيتكسر.. بعدها فضلت واقفة.. قلت أكيد هتخرجي بس ما طلعتيش.

تيبست ملك، وهُيِّءَ إليها أن الدماء انسحبت من عروقها بالكامل، بينما أكملت الراهبة:

- اتلفت حواليا ما لقيتش حد.. بس أكيد ولد من الأشقيا حدفه

من فوق سطح أو حاجة.. العيال الصغيرين هنا مؤذيين.

وعادت، كأنها نسيت وجود ملك تمامًا، تقول:
- بس صعب إيد ولد صغير تحدف حجر زي ده.. أكيد حد كبير.. بس مش معقول برضه.

ثم التفتت لملك كأنها أدركت من جديد أنها لا تزال جالسة:
- المهم جت سليمة ؟
- الحمد لله.
-كنت فاكرة اسألك لما جيتيلي المرة اللي فاتت بس نسيت..

نهضت ملك في قفزة مفاجئة. نظرت لها الراهبة بشيء من الإحباط.
- بدري يا مدام..
- معلش.. البنات مستنييني.
- أهلاً بيكي.

قالتها الراهبة، وخرجت ملك على الفور. بعد أن عبرت باب المستوصف، سمعت صوت الراهبة يناديها من الداخل. وقفت حتى أتت إليها مهرولة، وسمعت ملك صوت تنفسها اللاهث وهي تقول:
- نسيتي القطرة.

(9)

فتشت كل شبر في البلكونة، وفي غرفة نومها، ولكنها لم تعثر على أي حجر أو حتى حصاة صغيرة. منحها كلام الراهبة مبررًا معقولاً لما حدث: أحدهم قذف الخطاب مربوطًا في حجر ثقيل.. وهكذا هشم الزجاج.

تذكر أنها يوم استقبلت الخطاب كان وحيدًا، ومفرودًا على جسدها. وعندما نظفت أرضية البلكونة والغرفة من الزجاج لم يكن هناك أي جسد غريب.

واصلت بحثها بالخروج إلى الصالة. زحفت بين الكراسي معاودة تفتيشها اليائس. فتحت رجاء الباب وفوجئت بالمرأة المنبطحة على بطنها؛ فأطلقت شهقة رعب لأنها ظنت للوهلة الأولى أنها ماتت. ولكن ملك أدارت نحوها وجهًا مندهشًا بعينين جاحظتين، فقالت رجاء مرتعدة:

– بسم الله الرحمن الرحيم.

وأكملت:

– أبله.. أبله.

قالت ملك بهدوء:

– اقفلي الباب يا رجاء.. أنا لسه عايشه.

نهضت وهي تنفض يديها من التراب، وسألتها:

– ما شفتيش حاجة غريبة في الشقة ؟

ردت رجاء مندهشة:

– حاجة ايه ؟

– حجرة.. طوبة.. كده.

– لأ.. ليه ؟

– أصل الست بتاعة المستوصف قالتلي إنها شافت الحجر اللي كسر القزاز الشهر اللي فات.. بس أنا لما نضفت ما كانش في حاجة.

– وايه المشكلة يا أبله.. هو لازم تلاقيه؟.. ده حجر.. يعني ما بيعضش.

ضحكت رجاء بطريقتها السوقية المرحة. ولكن نظرة ملك الجادة أوقفتها.

– يا أبله الست القبطية دي مجنونة وبيتهيألها حاجات.. ده عيال الشارع بيزفوها في الرايحة والجاية علشان بتكلم نفسها وهي ماشية.

قالت ملك بغضب، كأنها توجه كلامها لرجاء بالذات:

- أصلهم قلالات الأدب.

- ....

- يعني انتي متأكدة ؟

نظرت لها رجاء بحيرة.

- قصدي الحجر..

- ما شفتش أي حجارة والله يا أبله.

اتجهت نحو مكتبها المعدني الصغير. أخرجت الدفاتر وأخذت تقلب فيه. بينما عادت مست لتفتيش تحت المقاعد.

عني فكرة يا أبلة.. النهاردة ٩ في الشهر ومفيش ولا بنت دفعت.

جابتها مست بقدر من الحدة:

أنا بتأخر في دفع مرتبت ؟

لحدة مش كده.. لكن أنا موجودة هنا علشان ده.. و ده مش بيحصل.. والبنات لما بطلب الفلوس بيتمسخرو بيا.

فقدت مست.. وبشيء من الغيظ أكملت رجاء:

- عني فكرة البنات بيشترو بالفلوس روج وسجاير.. وبصراحة يا أبله أي بنت مش مظبوطة في المدرسة بيبقى اسمها من بنات ملك.

لم ترد ملك أيضًا.

– حضرتك مش ملاحظة إن عدد بناتك بيقل؟ يعني من تلات سنين كانوا زي دلوقت؟ الناس بتخاف على بناتها واحنا بلدنا صغيرة.

نهضت ملك بإحباط بعد أن تأكدت من عبثية بحثها.

– وبيقولو إيه كمان ؟

– ما فيش.

– قولي يا رجاء مش هزعل.. دي حاجات مفروض اعرفها.

– بصراحة بيقولو إنك بتقعدي تتكلمي مع البنات عن الشبان.. وبتكتبيلهم ساعات جوابات يبعتوهالهم من ورا أهاليهم.

شحبت ملك، وظلت تحدق في عيني رجاء، التي ارتبكت فجأة.

– هو كلام عبيط.. بس الناس بتصدق.. في البلد دي أي حاجة ممكن تتصدق.

انزعجت لأن رجاء تحدثها كما لو كانت سائحة.

– البلد دي أنا اتولدت وعشت فيها.

– بس ما تعرفيهاش يا أبله.. انتي سبتيها كتير ورجعتي متغيرة عنها.

فكرت أن تفتش في المطبخ والحمام ولكنها اكتشفت إنها فكرة غير معقولة. شعرت بأنها على وشك الجنون.

دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها. أخرجت خطاباتها الخاصة، وبدأت تضع كل خطاب بجانب آخر.. وتقرأ، كأنها تقارن بينهما. فرقت كل زوجين مع بعضهما كأوراق كوتشينة، ثم أخرجت ثلاث خطابات وبدأت تقرأها تباعًا. اختارت واحدًا منها، ثم انتزعت ورقة بيضاء وبدأت تكتب، ناظرة إليه بين الحين والآخر.

(10)

لأول مرة، ترى ملك صندوقًا يعبر الشارع.

انفتحت كل الشبابيك، لتلقي النساء نظرات فضول على جثمان الراهبة، ولم تصدق أن المرأة ودعتها بهذه السرعة. شعرت فجأة بثقل أذنيها، وأصابها الصمم للحظات. كانت وحيدة هذه المرة، لا تملك الساتر التقليدي من أجساد البنات.

ارتدت ملابسها على عجل، وظلت صامتة في الجنازة شبه الخالية حتى لاحت مقابر الأقباط. على مبعدة لاحِ الكورنيش المرتجل. يطل على مجرى مائي رفيع، وشبه راكد. تأملته قليلاً مستغربة كأنها نسيت وجوده كل ذلك الوقت. وبعد أن أغلقت المقبرة، عادت ملك تفكر في أذنيها، وحدست أنها ستعيش ما تبقى من عمرها بأذنين مغلقتين. في الغروب بدا شارع الكورنيش مقبضًا بعض الشيء، تحتل مدخله يافطة جديدة تحمل اسم شخص لا تعرفه. عبرت إلى الرصيف المطل على الماء؛ حيث

تمشي فتيات مشبوكات الأيدي مع عشاقهن. أغلبهن من الريفيات، فلا تجرؤ فتاة من المدينة على فعل ذلك. الصف المقابل تحتله سيارات أجرة يصرخ سائقوها بصوت عال، كل دقائق تودع فتاة فتاها وتحتل مقعدها في إحدى السيارات، تظل النظرات معلقة كأنه وداع أخير. للهواء رائحة نبتات عطنة، وماء راكد.

جلست على أريكة رخامية، معطية ظهرها للماء.. واكتشفت أنها الوحيدة في كل الجالسين التي تعطي وجهها للشارع. رغم أن أحدًا لم يكن يجلس على الأريكة إلا أنها ظلت جالسة في طرفها، وبقى جزء من مؤخرتها خارج حافتها حتى خافت أن تقع فانزاحت سنتيمترات للداخل. تمامًا كما تفعل في سريرها، تتكوم في جانب منه تاركةً فراغًا، كأن شخصًا قد يجيء في أي لحظة ليأخذ مكانه. بعد لحظات أتى عجوز وجلس بجانبها، وبدأ يلتقط أنفاسه بصعوبة. ثم أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها بهدوء. تضايقت لأنه لم يجلس على مسافة كافية منها. كان قريبًا حتى كاد أن يلتصق بها، و لم تكن تملك أي مساحة لتبعد جسدها عنه. كان الرجل يرتدي جلبابًا رماديًا مثقوبًا بعشرات الحروق الصغيرة من السجائر. بعد لحظات انتفض، وعبرها مزيحًا جسدها، ووجدت نفسها على الأرض.. وقبل أن تفعل شيئًا أو تفهم ماذا حدث رأته يمسك بفتاة ويكيل لها الصفعات، ثم نزع عنها حجابها وشدها من شعرها مكيلاً إليها اللكمات. عبر بها الشارع وهو يجرها على الأرض، ثم صعد بها إلى سيارة الأجرة، التي انطلقت على الفور.

(11)

خطاباتها القديمة، كما يجب أن تُكتب، اكتملت اليوم.

في الصباح انتهت من آخر واحد، مستشعرة المتعة والإحباط اللذين يصاحبان الانتهاء من لعبة. في ليالي وحدتها أعادت كتابتها.. واحدًا بعد آخر ومرة بعد أخرى. منحت كل خطاب أسلوبه المصقول.. أصلحت الأخطاء.. هدّأت الانفعالات هنا، وضاعفت من حدتها هناك. أخفت ما باحت به في هذا الخطاب وقالت ما لم ترده في آخر.

في الظلمة، أدارت ملك من جديد حياتها كما كان يجب أن تفعل ذات يوم بعيد. مرة بعد أخرى كانت ترى ثقوب شبابها الواسعة تضيق.. وأخيرًا شعرت بالرضا، رغم أنها ظلت حياة مرتقة، وغير قابلة للاسترداد.

عندما باغتها الخطاب توقف كل شيء فجأة، ولكنها أعملت يديها

من جديد بعد ذلك، لأن ما تبقى من حياتها التي بحاجة لأن تكتب كان قليلاً جدًا.

على السرير، وضعت كل خطاب بجانب شبيهه، في صفين متقابلين. ثم ضمت كل مجموعة بخيط رفيع، ووضعتهما من جديد في عتمة الدولاب. ورغم أن يناير قد عبر، إلا أنها شاهدت شبح زوجها يدخل الغرفة، ويرفع المخدة. هرولت والتقطت الخطاب بسرعة ودسته في صدرها. نظر لها، ثم اتجه إلى البلكونة واختفى. هُيِّءَ لها أنها سمعت صوت ارتطام شيء بالأرض، ففتحت النافذة ووقفت. وجدت الشارع كما هو. كانت آلتا الرصف تعملان بضوضائهما القاتلة. أحكمت إغلاق النافذة، وأعادت الخطاب إلى مكانه.

انتابتها حيرة مفاجئة وهي تفكر: إذا كان عليَّ الآن، في هذه اللحظة، أن أحتفظ بمجموعة من الاثنتين.. إذا كان لابد أن أختار، فأي الخطابات سأضحي بها؟. ورغم أنها لم تكن مجبرة على التضحية بأي منهما، إلا أنها انخرطت بكاملها في التفكير المجهد.. وهي تختار بين ما فعلته فعلاً وما كان يمكن أن تفعله. أعادت صفهما من جديد وجلست القرفصاء في قلب الدائرة. شعرت بأن مهمتها الشخصية قد انتهت، وبأنها، بما فعلت، ردت الاعتبار لحياتها. بدأت تتأمل كل خطاب ونظيره. استبعدت مبدئيًا الفكرة الساذجة بالاحتفاظ بحفنة من هؤلاء وأخرى من الآخرين. كانت تعرف أنه إما أن تكون هذه أو تلك. نظرت بحنين لأخطائها القديمة. خطاباتها

الجديدة لا تختلف كثيرًا عن تلك التي تكتبها المغنيات. لقد كتبتها لفتاة أخرى، تحمل نفس الاسم، غير أنها بالتأكيد ليست هي.

صارت أحلامها قليلة، وعلى فترات متباعدة جدًا، لكنها تتذكرها أسيرة رؤى مشوشة وخوف مجهول. حياتها المستعادة بين يديها الآن ذكرتها بحلم تشعل فيه النار في كل الأوراق.. كل ورقة تحترق بكتابتها تعود بعدها بيضاء وناصعة.. عندما تنتهي منها تفتح النافذة الواسعة في غرفة نومها، وتترك كل الخطابات تحلق عبرها، لترفرف فوق سماء المدينة قبل أن تتفرق ببطء كأوراق شجر خريفية، لتعبر الشرفات والشبابيك إلى داخل البيوت.

فكرت فجأة في مصير كل تلك الوريقات. وتمنت ـ لأول مرة في حياتها ـ أن تعرف موعد موتها كي تتمكن من التخلص منها في الوقت المناسب.

(12)

على سريرها بالذات، كانت رجاء عارية تمامًا، تتأوه تحت رجل.

عندما فتحت ملك باب الشقة شعرت بالوجود الأكيد لرجل عار، ولكنها حدست في البداية أنه شبح الصائغ. ورغم أنه ظهر بالفعل، واصطدم بها وهي تتحرك نحو غرفة نومها؛ إلا أنها أغمضت عينيها لتعثر على الرجل الدافيء الذي يلهث بالداخل.

توقف كل شيء فجأة ، لكن السرير ظل يهتز للحظات. نهض بجسده المكتمل، المفتول، التام.. ودارى عضوه بكف يده، وتمنت ملك أن يرفعها. رأت الندبة العميقة، بالدم المتجلط، تضيء وجنته.. وهُيِّءَ لها أنها زادت اتساعًا و عمقًا.

ارتعدت، لأنها رأت موتها في تلك اللحظة.. لم تكن قادرة على تصديق أن ذلك نفس الرجل الذي لم يحدثها إلا عن الموت.

أغلقت الباب وخرجت إلى الصالة، وفكرت فجأة في الخطاب المتروك تحت المخدة. قد يكون ضاع، أو تمزق في فوضى الجسدين المتعبين. وحدست أنه لو لم يحدث ذلك فبالتأكيد رأته رجاء، واستغربت، وحاولت أن تفك خريطته الغارقة المعقدة. لعلها أشركت رفيقها معها، وانهمكا في فض غموضه، قبل أن يستسلما للذة.

بعد دقيقة خرج، واتجه مُطرقًا نحو باب الشقة. بعدها رفعت عينيها على جسد نحيل بلون الفضة.. فرأت يد رجاء تتدلى بمفتاح الشقة. عادت إلى الغرفة، ومدت يدها ـ بوجل ـ تحت المخدة، لكن الطمأنينة عاودتها عندما تلمست الورقة. مرت براحتها على الملاءة، وشعرت بأن لها نفس الملمس.

لا تعرف كم مر من الوقت، إلى أن سمعت الطرقات على الباب. نهضت لتفتح، وفي هذه اللحظة فقط اكتشفت أن رجاء لم تعد موجودة. جلست البنات، وظلت هي تنظر إلى غرفة النوم المفتوحة كل بضع دقائق. كانت تفكر في ليلتها القادمة على هذا السرير.

سرحت في الأسئلة: هل هي المرة الأولى أم فعلتها رجاء قبل ذلك؟ وهل فعلتها مع رجل واحد أم أن عديدين تركوا آثارهم على نفس الملاءة؟.. هل يعرف الجيران ؟.. وكيف لم تحدس قبل ذلك أن روائح أخرى تسكن فراشها ؟. كان الغضب يقتلها، ليس لشعورها بالخيانة لكن لأنها اكتشفت

أن حتى حواسها كانت معطلة كل هذا الوقت.. وقتلها يقين مفاجيء بأنها لن تشعر بشيء، حتى لو شاركها آخرون سريرها في يقظتها.

– فين رجاء ؟

توالت أسئلة البنات، و لم تجب.

في الصباح فتحت بابها لرجل يشتري الأشياء القديمة، ليحمل المكتب المعدني مع صبية. فكرت بحسرة أنه أول رجل يدخل الشقة منذ جاءت، ولكن تذكرها لرجاء أعادها للحقيقة. قبل أن تنام راحت تفرغه من محتوياته، مفتشة في العالم السري لرجاء، والذي قفز في وجهها فجأة حاملاً روائح جسدها المتداخلة الأليفة. أنواع مختلفة من الأقراص، وأصابع " روج " ذائبة ومفتتة، وعلب ماكياج رخيصة تفوح منها روائح حلوة. أيضًا وجدت حمالة صدرمهترئة ومرتقة أكثر من مرة في عدة مواضع. أخرجت الدفاتر العديدة التي انشغلت رجاء بها كثيرًا طيلة ثلاث سنوات. على كل دفتر ورقة تشير للعام الدراسي. قلبته ملك. مرت بعينيها على صفوف الطالبات، لسن سوى أسماء الآن. لم تفرق بينهن أبدًا بشكل حقيقي. كل واحدة بالنسبة لها عبارة عن حكاية تحكى مرة بعد أخرى، قد تبتر مبكرًا أو تصل إلى نهايتها.. التي قد تكون سعيدة أو تعسة. كن بالنسبة لها مجرد مبرر للوجود فحسب، قطيع عيون مندهشة

وقلوب ترتجف. أغلب الخانات الخاصة بالنقود خالية. وغضبت، رغم أنها تعرف.

فقط في اللحظة التي غادر فيها الرجل الشقة حاملاً الجثمان الحديدي، تأكدت أن رجاء صارت ذكرى. بدأت تفتش أرفف الدولاب وأدراج التسريحة والكومودينو. لحظات من الرعب راحت تشحب تدريجيًا مع اطمئنانها أن أوراقها كما هي. فعلت ذلك بالسرعة والدربة اللتين طالما رأتهما في يدي شبح الصائغ اللتين تفتشان أحلامها. وأفزعها ذلك التشابه الذي اكتشفته فجأة.

لم يظهر منذ أزاحته عن طريقها. اختفى الصوت الأليف لحفيف السلسلة على عنقه، كما صارت أخيرًا قادرة على تحريك عينيها دون أن تخاتلها لمعة الذهب.. وعبرتها قشعريرة وهي تتخيل أن الصائغ ظل هنا كل هذا الوقت من أجل امرأة أخرى.

(13)

بصعوبة راحت تشق طريقها بين الشواهد، غير مصدقة أنها ضلت الطريق إلى مقبرتها في الليل. كان القمر مكتملاً، ولكن المكان أشبه بمتاهة لا علاقة لها بتلك التي جاءتها مرارًا في النهارات. كانت تتمرن على الطريق إلى مقبرتها كأنها ستدخلها بقدميها، لأنها كانت تنوي أن تكتب عنوانها بدقة في وصيتها. كانت جالسة تقرأ خطاباتها عندما فكرت فجأة أنها لا تعرف شكل مقبرتها في الليل. وعندما عبرت الشوارع القليلة التي تفصلها عن المقابر اكتشفت أنها لم تمش في شوارع المدينة ليلاً منذ جاءت.

بدت مكانًا آخر، شوارع موحشة يعبرها رجال ضجرون، و لا أثر للنساء. النوافذ المضاءة تخبو تباعًا. تسقط الظلمة كغطاء ثقيل.

اكتشفت أن المساء شديد البرودة رغم شمس الصباح القوية. وعندما

بدأت تتحرك بين المقابر كان المطر قد حول الحارات الضيقة لأنهار من الوحل.

في آخر مرة، كانت مقبرتها قد صارت جاهزة تمامًا، وقال لها الخفير بهدوء:

– كدا مش فاضل غير التاريخ.
ارتجفت، وهي تنظر لخانة تاريخ الموت الخالية.
– بس لازم تتكتب يومها.

خشيت فجأة أن تترك هكذا بعد موتها، خاصة أن أحدًا لن يسأل من بعدها.
– طبعًا.. دي أمانة.

هذا الرجل يتكلم عن الموت بنفس البساطة التي يتبول بها على الجدران.

منحته في آخر مرة مزيدًا من النقود، رغم أنها لم تكن بحاجة لأن تفعل. لم تكن تتخيل أنها ستراه المرة القادمة على سريرها.

من جديد نظرت للقمر المكتمل، والذي بدا قريبًا جدًا، وفكرت أنه لم يكن بهذا القرب وهي تعبر الشوارع. فشلت في تحديد الاتجاه الصحيح للوصول إلى مقبرتها. بدأت تشعر بالحمى تجتاح عظامها، وهُيِّئ إليها أن الصبح ظهر فجأة، وأن يدًا استوقفتها، يدًا كانت بحاجة لها ضغطت على كتفها فزاد انغراس قدميها في الوحل. وجه الخفير في الليل لا يختلف عن وجهه في النهار. قادها بين صفوف الخرات المتوازية المتقاطعة، وكان جزء من القمر يختفي مع كل انحرافة، وتصير السماء أشد عتمة، بينما ترى مقبرتها على البعد أكثر وضوحًا. كان خلفها، يدفعها بيديه للأمام، وهي كضريرة منومة، ووحيدة أمامه.. كأنها من تقوده. يهمهم بالآيات كي لا يزعج الموتى، ويتوقف ليبول بجوارهم.

وصلت أخيرًا إلى مقبرتها. مرت بيديها على اسمها المحفور في الواجهة، والآيات التي تطلب لها الرحمة، وتاريخ مولدها. هُيِّئَ إليها أن تاريخ موتها الشاغر قد امتلأ.. ولكنها لم تستطع تمييزه في العتمة التي صارت محكمة. شعرت بجسدها باردًا، ورغم لفحات الهواء الثلجية إلا أنها لم تكن قادرة على تشمم شيء سوى أنفاس الرجل المعبأة بالتبغ والكحول.

يومها فضلت نايمة تلات أيام.. مش قادرة اقوم.. كإني مت.. وصحيت لقيت ورقة لازقة في جسمي.

أحاطت اليدان القويتان بخصرها، وواجهها الوجه الشمعي بلا تعبير، ووجدت نفسها ترتفع لتستريح مؤخرتها على حافة المقبرة، قبل أن تجد ساقيها ترتاحان على ذراعيه. هطل المطر من جديد، أشد حدة، واستقبله جسدها العاري بينما تركت لتأوهاتها العنان. رغم ذلك قل شعورها بالابتراد، ومع استسلامها للحمى، لم تعد تميز حتى حدود اللذة والألم.

(14)

لا تعرف على وجه الدقة متى حدث ذلك، ولكنها أخرجت الخطاب في هذا الصباح خاليًا من كل تجاعيده، وحروفه الذائبة، وحوافه المصفرة.. كأي ورقة بيضاء لم تُكتب. وابتسمت ملك، شاعرة بطمأنينة غريبة تسري في عروقها.

كانت الصفحة المنبسطة أمامها مصقولة، حتى هُيِّءَ لها أنها ترى وجهها فيها. التقطت القلم لتكتب شيئًا، ولكنها توقفت فجأة، قبل أن تخط حرفًا.. لأنها تأكدت ـ مرتعدة ـ أن اليد التي همت بالكتابة، ليست يدها.

القاهرة

٢٠٠٧ـ٢٠٠٨

طارق إمام روائي مصري، من مواليد ١٢ / ٨ / ١٩٧٧. حاصل على ليسانس الأدب الإنجليزي من جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٠، و يعمل صحفيًا بمجلة الإذاعة و التليفزيون القاهرية. فضلاً عن القصة و الرواية يكتب النقد الأدبي .

أصدر خمسة كتب:

١ ـ **طيور جديدة لم يفسدها الهواء** ـ قصص ـ **دار شرقيات** ـ القاهرة ـ ١٩٩٥.

٢ ـ **شارع آخر لكائن** ـ قصص ـ **الهيئة العامة لقصور الثقافة** ـ القاهرة ـ ١٩٩٧.

٣ ـ **ملك البحار الخمسة** ـ قصص للأطفال ـ **الهيئة العامة لقصور الثقافة** ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠.

٤ ـ **شريعة القطة** ـ رواية ـ **دار ميريت** ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣.

٥ ـ **هدوء القتلة** ـ رواية ـ **دار ميريت** ـ القاهرة ـ ٢٠٠٨.

حصل على أربع جوائز:

- جائزة "**ساويرس**" في الرواية– المركز الثاني– عن رواية "**هدوء القتلة**" – ٢٠٠٨.
- الجائزة المركزية الأولى **لوزارة الثقافة المصرية** مرتين، عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٦.
- جائزة **سعاد الصباح** لأفضل مجموعة قصصية، عام ٢٠٠٥، عن مخطوط مجموعة "**عزف القباطنة لا ترى البحر**".

tarek_emam_74@hotmail.com

الأرملة تكتب الخطابات سرًا

حكاية مثيرة ، بطلتها أرملة مسنة تعيش وحيدة في مدينة صغيرة.. و تكتب خطابات غرامية في الخفاء لمراهقات المدينة ليرسلنها إلى عشاقهن، لكن حياتها تنقلب رأسًا على عقب فجأة عندما تتعرض لحادث لا يصدق، أشبه بمعجزة.. لتبدأ رحلة بحث جديدة في نهاية عمرها عن ذاتها المفقودة .

رواية جديدة لطارق إمام ، صاحب «شريعة القطة» و«هدوء القتلة»، يضع من خلالها حجرًا جديدا في عالمه الروائي الذي يتخذ من الواقعية السحرية فضاءً له.. مقدمًا عالمًا تدور أحداثه و تتحرك شخوصه بين الواقع والخيال بحيث يستحيل الفصل بينهما أو تحديد الشعرة الواهية بين ما هو قابل للتصديق وما يستحيل وقوعه بالمنطق الاعتيادي للأشياء. كتابة تقدم العالم في ضوء التخييل القادر على تحويل الواقعة الصغيرة إلى أسطورة ثقيلة الدلالات.. وبلغة شعرية ـ تسم كل أعمال الكاتب ـ تقرأ العالم كقصيدة ممتدة تنام تفاصيلها في ثنايا الحكي.

الأرملة تكتب الخطابات سراً.. حكاية حقيقية حتى أنها لا تُصدّق!.

الفوتوغرافيا و تصميم الغلاف: أحمد النباد

6 224007 22085 6

Ain for publishing
دار العين للنشر